اللغة والأدب-مجلة علمية محكّمة
ISSN: 1111-1143 EISSN: 2602-5202
العدد:.32 المجلد:17؛ الشهر/السنة:2020

اللغة والأدب
مجلة علمية محكّمة
يصدرها
قسم اللغة العربية
وآدابها

اللغة والأدب

I.S.S.N: 1111-1143
E.I.S.S.N: 2602-5205

Language and Literature
A peer-reviewed Scientific journal
Issued by
the Departement of Arabic Language
and Literature

صورة الآخر (الأجنبي والوطني) في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

روايتي "ابن الفقير" و "التلميذ والدرس" أنموذجا

The image of the other in the Algerian novel written in French

نوادرية كريمة

المركز الجامعي – ميلة

Nowadriya Karim

Center university- Mila

المؤلف المرسل(باللغتين): الاسم الكامل:	الإيميل:
نوادرية كريمة Nowadriya Karima	
تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:
2019/07/19	2020/01/23

اللغة والأدب-مجلة علمية محكّمة
ISSN: 1111-1143 EISSN: 2602-5202
العدد:.32 المجلد:17؛ الشهر/السنة:2020

- ملخص:

تناولت الرواية الجزائرية الناطقة باللسان الفرنسي، صورة الآخر بطرق وأشكال اختلفت باختلاف صور تحقيب المسار الذي عرفته هذه الرواية، فقد اتخذ الآخر في بعض النصوص، صورة الوافد الدخيل على البلاد (المستعمر الفرنسي)، كما هي الحال في رواية "ابن الفقير" للكاتب "مولود فرعون"، التي دعت إلى تحقيق الوعي بمنجزات هذا الآخر (الأجنبي) المتحضر في سبيل وعي الأنا (الجزائري) بالذات، إيذانا ببدء عملية "الإعداد والمراجعة" التي تسبق عملية "التقويم والبناء"، في المقابل ينتمي الآخر في نصوص أخرى إلى الأنا الوطني/الجزائري في الأصول، ويختلف عنه في التوجهات والمبادئ والأفكار، كما هي الحال في رواية "التلميذ والدرس" للكاتب "مالك حداد".

الكلمات المفتاحية:الصورة – الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية – الآخر الأجنبي - الآخر الوطني.

:Abstract

The Algerian novel with the French tongue dealt with the image of the other in ways and forms that differed according to the different tracks of the track that the novel had known. The other took in some texts the image of the foreign intruder on the country (the French colonizer), as the novel of the son of the poor, Called for the realization of the achievements of this civilized (other) foreigner for the sake of the consciousness of the ego (Algerian) in particular, marking the beginning of the process of "preparation and review" which precedes the process of "evaluation and construction". Assets, and differs from it in attitudes, principles and ideas, as is ".the case in The state "pupil lesson" writer "Malek Haddad

Keywords: The picture - the Algerian novel in French - the other foreign - the other .national

- مقدمة:

شغلت قضية التخلي عن الهوية الأصيلة (الهوية الجزائرية) والتحول إلى هوية الآخر (المستعمر الفرنسي) على مستوى النص الروائي الجزائري المكتوب باللسان الفرنسي، منذ نشأته الأولى، والتي حدد المؤرخ الفرنسي "جان ديجو" تاريخ انطلاقته الحقيقية بسنة 1920، مع رواية "أحمد بن مصطفى القومي" لصاحبها "القايد بن الشريف"(1)، غالبية كتاب

الرواية من الجزائريين على اختلاف توجهاتهم الفكرية والثقافية، وانتماءاتهم السياسية، لاسيما تلك النصوص التي تنتمي للفترة الممتدة ما بين" 1920 و 1945، فترة ازدهار الخطاب الروائي الاندماجي "(2). وقد نوقشت قضية "الاندماج" - في بعض صورها - وفق منطق القبول من منطلق الإعجاب الشديد بمنجزات الآخر الفرنسي المتحضر، وضرورة البحث في شروط وآليات تحقيق تلك المنجزات، والذي يشكل الاندماج، وفتح قنوات التواصل مع هذا الآخر لغويا، وأدبيا، وفكريا، المعبر الوحيد لتحقيق هذا الهدف.

والواقع أن روية "ابن الفقير" لمولود فرعون، والتي كتبها سنة 1939، وقام بنشرها لأول مرة سنة 1950 على نفقته الشخصية، ثم أعيد نشرها

سنة 1952 من قبل إحدى دور النشر الفرنسية، من أهم الروايات التي ثمنت الفكرة (فكرة الاندماج)، لأن الكاتب مثله مثل جل كتاب إفريقيا الشمالية من غير الأوربيين عامة، ممن عرفوا الثقافة الفرنسية سواء بفعل إقامتهم بفرنسا "إما بحثا عن العمل الذي لم يجدوه في بلادهم، وإما لمواصلة دراستهم /.../، وإما من خلال الخدمة العسكرية، وإما /../ خلال الحربين العالميتين اللتين ساهمتا بفعالية في فتح افريقية الشمالية للتأثيرات الأجنبية"(3)، وإما من خلال اكتشافهم لهذه الثقافة في المدرسة الفرنسية الموجودة – كما هي الحال مع صاحب رواية "ابن الفقير" مولود فرعون - في بلدانهم، ولم يعودوا بعد هذا الكشف قادرين على تركها، والعودة " إلى الماضي الذي يحاولون الابتعاد تمشيا مع القرن العشرين، ولكن يستحيل عليهم في نفس الوقت أن يقطعوا علاقاتهم بعالم طفولتهم وشبابهم وتراثهم الثقافي الخاص "(4). ومن هنا بالذات تصبح الدعوة إلى قبول الاندماج – من جهة نظر فرعون وزملائه - وسيلة لا غاية في ذاتها.

في المقابل نجد "التلميذ والدرس" لكاتبها "مالك حداد"، وبالنظر إلى المرحلة التي صدرت فيها الرواية (1959)، أي بعد قيام الثورة التحريرية التي صارت "وطن الأدباء على حد تعبير الأديب الجزائري الراحل كاتب ياسين"(5)، حيث " فجرت الطاقات الإبداعية للشعب في شتى الميادين وأتاحت الفرصة للكتاب أن يغيروا من نظرتهم للواقع والحياة "(6)، نقول نجد رواية "التلميذ والدرس" قد تخطت قضية الآخر الأجنبي الدخيل على البلاد - بحسب متطلبات المرحلة النضالية الجديدة - حين تحدثت بكثير من الوعي والنضج عن الآخر الوطني المناهض للاستعمار، والساعي إلى إثبات الذات بالقوة وعنف المواجهة، في صراعه مع الأنا الوطني الفاشل (أو الخائن بتعبير الرواية) الذي رأى أن في الهروب والإنكار، وسيلة دفاع أو مقاومة، تحمي الذات من الحلول في الآخر الاستعماري. ومن أجل استجلاء الصورتين، ستنبني ورقتنا التحليلية الوصفية على محورين:

- المحور الأول: يتناول مفهوم "النضال" من خلال صورة الآخر الأجنبي (الفرنسي)، الموسوم بالرقي والمدنية على مستوى رواية "ابن الفقير"، .

- المحور الثاني: يتناول صورة الآخر الوطني، الذي أعاد خلق وتشكيل مفهوم جديد للنضال على مستوى رواية "التلميذ والدرس".

1- صورة الآخر " الأجنبي" المتحضر في رواية "ابن الفقير":

تنتمي رواية "ابن الفقير" لصاحبها مولود فرعون من حيث الشكل إلى سرديات السيرة الذاتية، أو هي " ضرب من سيرة ذاتية في رواية "(7)، بوصفها باكورة أعماله الروائية، حيث لاحظ بعض الباحثين أن " أول عمل يكتبه أديب من إفريقية الشمالية هو عادة ترجمة شخصية يفصح فيها عن انتمائه إلى عالمين مختلفين، كما يعبر فيها عن ألمه من عدم استطاعته أن يجد مكانا في أي من هذين العالمين "(8). هذا النمط من التأليف "[ي]ضفي معاني على أحداث لم تمتلكها وما كان من الممكن أن تمتلكها وقت حدوثها "(9)، لأنه يعتمد على آلية

التذكر، وفي "لحظات التذكر – الذي يحدث في الحاضر – يستدعى واقع "أحداث الماضي" بثراء وعمق، وكان من المستحيل معرفتها وتقييمها حين مرت بنا أصلا "(10) من جهة، كما أن كتابة أو تدوين معاناة ذاتية من جهة أخرى " يشف عما هو أكثر من ذاتي، أي عن حوادث موضوعية تاريخية، مما يعطيها أيضا صفة الاستمرار والتجاوز للفردي "(11)، ومنه يستحيل النص ذاكرة جماعية، وسجلا توثيقيا لمرحلة عاشها المجتمع في فترة زمنية معينة من تاريخه.

أما من حيث مضمونها فيمكن إدراجها ضمن "روايات الهوية على شاكلة العديد من روايات الكتاب الجزائريين خلال الحقبة الاستعمارية "(12)، بما هي أي (الهوية) من حيث المعنى العام للكلمة في العلوم الإنسانية المختلفة، " تشتمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس وللمثيل، أي خصوصية الذات وما يتميز به الفرد والمجتمع عن الأغيار، من خصائص وميّزات وقيم ومقومات "(13)، يختلف ترتيبها " حسب الأولوية والأهمية "(14) من جهة، وبما يتوافق من جهة ثانية والكيفيات أو الطرائق التي يتحقق بها ذلك الوجود المتميز من شخص إلى شخص آخر، ومن جماعة إلى جماعة أخرى . لذلك يدعو كاتب رواية "ابن الفقير" مولود فرعون إلى فكرة الاندماج والتعايش بين الأهالي والأوربيين، من وجهة نظر أن تحقيق شروط النهضة والتطور، والإحساس بخصوصية الأنا المختلفة، وصناعة الوجود الذاتي المتميز، لا يتأتى إلا عن طريق التفتح على الآخر الفرنسي المتحضر.

يجسد هذا الطرح بطل الرواية الصبي "فورولو منراد"، الذي انقسمت حياته إلى قسمين، قام فيها الكاتب بعملية غربلة منظمة ومقصودة لأحداثها، باحثا عن الراسخ الأصيل (ماضيا وحاضرا ومستقبلا) في عالم الصبي منراد، حين يبدأ السرد من الذات باتجاه الآخر، إذ " لا يمكن فهم الآخر ما لم نكن ملمين بخبايا الذات، برغباتها بأفكارها بذاكرتها...الخ."(15). وعلى هذا الأساس يبرز الكاتب في القسم الأول صورة "الأنا" الجزائري من خلال عيون الطفل "منراد"، بينما يجسد القسم الثاني صورة "الآخر" الفرنسي من خلال شخصية الشاب "منراد"، الطالب في المرحلة الإعدادية:

- القسم الأول: وهو عبارة عن رحلة في الزمن (الماضي) والمكان (القرية)، يتحدث فيها الصبي "منراد" عن ذكريات الطفولة، وعن اسمه "فورولو" المشتق من الفعل "أفير" في اللغة الأمازيغية بمعنى إخفاء - كما جاء في الرواية، - بما هو أول صبي في العائلة يولد حيا، وعن طبيعة العلاقة التي تجمعه بأفراد عائلته الصغيرة: والده "رمضان"، ووالدته "فاطمة"، وأخواته البنات (بايا،تيتى، زازو)، وشقيقه (داردار) الذي فقد منراد بسببه لقب الذكر الوحيد، واكتسب لقب الشقيق البكر على مستوى القسم الثاني من النص، وعائلته الكبيرة: عمه "لونيس"، وزوجته "حليمة"، وبنات عمه (جواهر، أم الخير، ثمينة، شبحا)، وجدته "تساديت"، وخالتيه (خالته، نانا)، وعن حياته داخل القرية بكل أعبائها الثقيلة، أولها عبء تأمين لقمة العيش.

هذه المرحلة التي يلخصها منراد في قوله:" إجمالا، تمر طفولتي كمنراد الصغير ابن رمضان

وابن أخيه لونيس على نحو عادي وفارغ، مثل كثير من أطفال منطقة القبائل. احتفظت من العمر، على سبيل الذكرى، بلوحة تبدو لي موحدة ومملة، واستحضرها في كل مرة دون إحساس بالجمال أو إحساس تعاطف شديد. أتذكر صورتي مرتديا جلبابا قديما فقد ألوانه بفعل الغسيل الرديء ويعلو رأسي طربوش أطرافه متهدبة وقذرة، كذلك لا أرتدي سروالا أو حذاء، لأنه في ذاكرتي أعيش في صيف دائم. قدمي سوداء بفعل التراب، أظافري تملأها القذارة. يدي مبقعة بالفاكهة، يغطي وجهي شرائط طويلة من العرق الجاف، عيني يكسوها الاحمرار وجفني منتفخ (..)"(16).

يتضمن الشاهد مجموعة من القرائن التي تحدد الإطار العام لطفولة الشخصية البطلة، فمن خلال ما يرتديه منراد من ملابس، بوصفها أي "الملابس مؤشرا دقيقا يحدد الانتماء المهني للشخص، والمستوى الاجتماعي" (17)، ووفق ما يعانيه الجسد من انتهاكات (الإرهاق، قلة النظافة) يمكننا أن نموضع الشخصية ضمن طبقة الفقراء اجتماعيا، وتحت اسم "مزارع" مهنيا، وعاشت ضمن وسط يمكن وسمه بالمتخلف حضاريا، الوسط الذي تزداد ملامحه حدة وبروزا، حينما يوضع في مواجهة الوسط أو العالم الثاني الذي تنتقل إليه الشخصية البطلة في مرحلة شبابها.

- القسم الثاني: يشمل حياة الشخصية البطلة بعد التحاقها بالمدارس الفرنسية، وإصرارها على تغيير حياتها نحو الأفضل، وما اختبرته من عادات جديدة في المسكن، والملبس، والمأكل، وأسلوب التعامل مع الآخر (الفرنسي) الأكثر رقيا وتهذيبا، وتفيد انتقالها من طور البداوة إلى طور التحضر والمدنية. تصف الرواية اليوم الأول لمنراد في مدرسة تيزي أوزو الإعدادية:" هل كل ذلك راعي الأغنام السابق؟ هل أعدت له تلك الغرفة الكبيرة ذات الفتحات الواسعة من الزجاج، والمناضد الجديدة واللامعة؟ هل أعدت له تلك النظافة التي يخشى المرء تدنيسها حتى عن بعد؟ هل خصصت له هذه السيدة التي تتحدث، وتشرح وتوجه الكلام إلى التلاميذ بأدب شديد حتى إنها تستخدم صيغة حضرتك؟ هل يصلح زميلا لهؤلاء الصبية الذين يرتدون أفضل الثياب، وحظوا بأفضل تربية ويبدون في غاية الذكاء؟ يشعر وكأنه غريب وسط هذا المجتمع الغريب الذي يبهره/_____/ إنه منبهر بالجميع، بينما يرى نفسه كئيبا، مثيرا للشفقة وضئيلا. "(18).

وبين القسمين تتجلى شخصية "فورولو منراد" شخصية مختلفة مبتعدة عن الصورة النمطية التقليدية للأنا الرافض للآخر (الأجنبي) بكل صوره، وتقدم للمتلقي صيغا تعريفية جديدة لفكرة الاندماج، تدفعه أكثر نحو التأمل والبحث، ولو ربطناها بواقعها الحقيقي لوجدناها إما خطابا نقديا تحقيريا يعبر عن تأثير عميق للمقررات التعليمية الاستعمارية على عقول ووجدان النخبة المثقفة من الأهالي، في سعيها العام نحو تجنيد كل الوسائل المادية والبشرية للقضاء على الهوية الوطنية، وترسيخ الوجود الفرنسي بالبلاد. أو هي تعبير عن وجه من وجوه الاغتراب التي باتت تعيشه النخبة المثقفة من الجزائريين المشتتة بين واقعين وهويتين مختلفتين. مستندين في هذا الضبط إلى ما أشار إليه "أمين الزاوي" في مقاله الموسوم ب"مقاربات تاريخية للرواية الجزائرية"،

مركزين على القطب الأول من التقسيم، يقول:" إن أهم ما يميز الخطاب الروائي في هذه الفترة [يقصد إلى الفترة الممتدة ما بين 1920- 1945] البحث في نص يكتب "الأنا" الباحثة عن طريق للدخول إلى "البيت الفرنسي"، وفي هذا النزوع "الاندماجي" كانت الرواية تركز على قطبين: الأول: إبراز الفئة الأهلية الاجتماعية الفلكلورية المتخلفة التي هي عقبة في وجه تحقيق رغبة العيش تحت "السقف الفرنسي"، والرواية هنا تحمل موقفين الأول يتمثل في الرؤية الاثنوغرافية التي تنتظم أحاسيس الكاتب تجاه واقعه، وهذا ناتج عن "الاغتراب" الذي بدأ يغرق فيه هؤلاء المثقفين/الوسطاء على كل المستويات السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية. أما الموقف الثاني فهو الخطاب النقدي الذي على الرغم من صدق بعض صوره – كان يحمل طمعا عنصريا احتقاريا حين تتوجه الرواية بخطابها إلى / أو عن المجتمع الأهلي، وإن عناصر التحقير الموجودة داخل هذه النصوص، هي بالأساس نتاج التأثير الذي مارسته الثقافة الكولونيالية والمدرسة الفرنسية على عقول هذه الأنتلجنسا " (19).

ولعلنا نسير في المسار الذي سطره الموقف الأول، حين نجد أنه على الرغم من النزوع الإدماجي، الذي تبنته هذه الأنتلجسيا، المصطلح الذي "يستخدم للإشارة إلى النخبة المثقفة، والمتميزة بميول نقدية نحو الحالة الراهنة "(20)، عبر الانتقال النوعي في حياة الصبي منراد من حياة الريف البسيطة والساذجة، التي لا تخلف غير الفقر، ولهاث مستمر خلف لقمة العيش المر، وبين حياته وهو شاب يافع يتمتع بالمظهر اللائق والمستوى التعليمي الرفيع، الذي يضعه في خانة التحضر والمدنية مقارنة بأبناء قريته، إلا أنه انتقال قد أحدث لدى الشخصية البطلة (أو المثقف الجزائري عامة) بعدما اختبرته من تجارب أبانت الفروقات الحضارية بين الصورتين (الأنا الجزائري المتخلف/ الآخر الفرنسي المتحضر) هزة عنيفة، هي:"هزة النشوة بمعرفة الذات بقدراتها الخارقة من ناحية، وهي هزة السؤال لمعرفة موقعه وعلاقته بما حوله من ناحية أخرى "(21). جاء في الرواية:" لم يتأخر منراد في التخلص من عقدة الدونية التي كانت تسلبه كل قدراته..عندما اكتشف أن زملاءه ليسو "ظواهر خارقة"، شرع في العمل بجدية ليحظى بمكانة مشرفة. سرعان ما تم تصنيفه هو وصديقه على أنهما "مجدان"."(22)، لذلك نلاحظ أن مولود فرعون بين ثنايا السرد لا ينادي بالاندماج والحلول الكلي في الشخصية الفرنسية، بل نجده يتخذ منها طريقا للوصول إلى الحضارة الحديثة، ووسيلة من وسائل تحقيق الوعي بقدرات الذات الجزائرية وإمكانياتها، كخطوة أولية في طريقها نحو إثبات وجودها، وليس غاية في ذاتها.

ولعل القرائن النصية التي تعزز فكرة رفض الاندماج الكلي، والحفاظ على معالم الهوية الجزائرية، كثيرة ومتعددة، فالكاتب يشيد في الكثير من المواضع بالعادات والتقاليد البربرية التي تمثل وجودها البشري الأصيل، فمن خلال العلاقة التي جمعت البطل منراد بعمه، وفي علاقته الخاصة مع خالته، تبرز طبيعة المجتمع القبائلي في التحام أفراده وتماسكهم، يقول منراد :" لا زلت ممتنا لخالتي أنها علمتني منذ الصغر أن أحلم وأن أخلق لذاتي عالم يناسبني، على

خلق أرض الأحلام التي أستطيع وحدي اختراقها" (23)

تلك النبرة (نبرة الرفض) التي بدت غير مسموعة في رواية "ابن الفقير"، ازدادت علوا ووضوحا في أعماله اللاحقة، حين أدرك مولود فرعون تدريجيا أن " إمكانية تقارب وتعايش ثقافات وشعوب مختلفة رغم تباين الأنظمة الاجتماعية، عن طريق الاندماج والاستقطاب التدريجي لشعب متخلف إلى مدار شعب أكثر تطورا"(24)، فعل مقاومة لضرورة حتمية:"أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة"، سواء على مستوى رواياته الموالية: "الأرض والدم" (1953) و "الدروب الوعرة" (1957)، أو فيما سجله على صفحات يومياته:" أعترف في نهاية المطاف بحق أولئك الذين حلّوا مسألة العلاقة الفرنسية الجزائرية المؤلمة حينما حملوا السلاح، وثاروا ضد المستعمرين "(25)، ولعل الطابع العام لهذا الأدب عبر مراحل تطوره المختلفة "يؤكد أن كتابه التحموا بالواقع الجزائري، وبالشعب، وقاتلوا معه في خندق واحد "(26) .

2- صورة الآخر "الوطني" في رواية "التلميذ والدرس":

تندرج رواية "التلميذ والدرس" لمالك حداد ضمن روايات الأدب الواقعي، الذي "كان ومازال يمثل أكثر الأجناس الأدبية استيعابا لقضايا الإنسان النفسية والاجتماعية والسياسية" (27) من خلال السعي خلف الجوهري في هذا الواقع بكل مُشكلاته، حيث تصور الرواية مأساة المجتمع الجزائري في ظل السلطة الاستعمارية منذ سنة 1945، هذا التاريخ الذي يعتبره الكاتب تاريخ ميلاده، بل تاريخ ميلاد كل الجزائريين، وآثاره السلبية على كل واحد منهم من خلال الشخصية البطلة، الطبيب صلاح قدير، الذي يعكس الطابع الصراعي الذي عاشته الأنا الجزائرية بعد هذا التاريخ: صراعها مع الذات، وصراعها مع الآخر، ولا نعني هنا الآخر الدخيل (المستعمر الفرنسي)، بل الآخر المقصود على مستوى النص هو الآخر الذي ينتمي إلى الشخصية البطلة في الأصول، ويختلف عنها في الزمن والأفكار والمفاهيم والتوجهات، إنه ابنته (فاضلة) من زوجته المتوفاة (سعدية)، التي أحبها حبا عظيما "ولا يتزوج المرء من أخته"(28).

فاضلة التي تركها صلاح قدير في رعاية أخوالها وهي في سن الثامنة من العمر، وارتحل إلى فرنسا، ولم يترك لها سوى صورة تضعها في محفظتها جنبا إلى جنب مع صورة حبيبها عمر، وقد اكتشفها الوالد قدير، وهي تزوره في فرنسا طالبة المساعدة، وقد أصبحت في العشرينيات من العمر، طالبة، ومناضلة، وامرأة تحمل بين أحشائها طفلا من عمر، وترغب في التخلص منه، لأن العلاقة التي تجمعهما لا تتخذ شكلها الرسمي والشرعي (أي الزواج)، ولأن ظروفهما لا تسمح بالإبقاء عليه، لأنه سيشكل عقبة في طريقهما النضالي نحو الاستقلال من جهة، ومن أجل إيواء عمر الهارب خوفا من القبض عليه، خاصة وقدير مدين لها، " إنك مدين لي بهذا على الأقل" تقول فاضلة (29)، وكما أنه بعيد عن كل الشكوك بحكم الصورة الهادئة التي عرف بها منذ دخل فرنسا:" إنه لن يكون في خطر عندك فأنت غير معروف ولا مسبة تلصق بك" (30). وتتحدد أوجه

الصراع الداخلي/الأنا والخارجي/الآخر على مستوى النص كالآتي:

- صراع الأنا مع الذات: ويتجلى ذلك في الطابع العام للرواية، حين يأخذ النص شكل المونولوج الداخلي، حيث يدخل الطبيب صلاح قدير في حوار داخلي مع الذات، وابنته تطلب منه المساعدة، بل تعيد محاكمته على هروبه، بوصفه "خائنا"، الكلمة التي لم تستطع قولها لكن كل ما تفوهت به يحيل إليها، وهي تشيح بعينيها بعيدا عن وجهه: "أحاديث فاضلة كانت تدور حول أخطائي. ما كان ينبغي أن أسكن في فرنسا بعد وفاة زوجتي. ما كان ينبغي أن أفعل كذا أو أفعل كذا. تزعم أني بحثت عن السلام، بحثت عن سلامي، أني لست غير أناني من العامة مجرد من الوجدان الوطني بل من الوجدان كله. وأني من أصحاب الحلول السهلة وأني لجأت إلى الجانب الآخر من البحر، الجانب الآخر من التاريخ الخ..كلمات ابنتي كلها بالحروف الكبيرة. والإهانة تبدأ بالكلمات الكبيرة /.../ انتظرت أن تستعمل كلمة: خائن./.../أفصح لي ذلك صدرها الخافق. ومن جهة أخرى أن الخونة وحدهم هم الذين لا يجرؤ أحد أن ينظر إليهم وجها لوجه "(31).

يستعيد الطبيب قدير على وقع هذه الكلمات مأساته مع الذات، فهو لم يستطع أن ينسجم مع زوجته، التي كان يرى اجتهادها لإرضائه يوما بعد يوم، قبل أن تنتهي إلى الموت في مستشفى للأمراض النفسية في بليدا، ولم يستطع حتى بعد رحيل زوجته أن يتزوج المرأة التي أحبها (جرمين)، لأنه لم يدرك آنئذ "أنه لا يمكن قطف النجوم" (32)، التي تسطع في سماء الآخر، الذي يمعن في رفضه واحتقاره حتى لو أصبح طبيبا، فقد جاء رد جرمين بعد طلب يدها من طرف صلاح، وهي التي كانت تجلس معه جلسة العشاق:" فتخلصت مني فجأة: - لا لا، يا صلاح إن خطيبي سيصل خلال أسبوع. وركضت إلى البيت" (33)،

ويزداد شعور قدير بالرفض، وتتعمق معاناته حين يلتقي جرمين مرة ثانية، وهي زوجة لآخر ينتمي إلى ثقافته، ثقافة الحلول السهلة أو بشكل أدق ثقافة "الخيانة"، وإن اختلفت الوسائل والغايات، حين لجأ إلى خيار الرحيل، الكلمة التي يستعملها الطبيب بديلا لحجب التعبير الأصح "الهروب"، مفضلا الصمت كفعل مقاومة بدل البقاء في البلاد والنضال في سبيل نيل الحرية. هذا الهروب الذي حدد هوية الصراع الثاني "صراع الأنا مع الآخر (الوطني)"، ابنته (فاضلة)، التي تنتمي إلى جيل آخر يمتلك ملامح وطنية جديدة لا تعترف إلا بالثورة والنضال الميداني المسلح سبيلا لافتكاك حقها في الكينونة، حقها في غد أفضل، حقها في جزائر حرة مستقلة.

- صراع الأنا مع الآخر (الوطني): تعلن الرواية منذ الصفحات الأولى عن الطابع الصراعي للعلاقة القائمة بين الأب وابنته، يقول قدير واصفا ابنته:"ما كنت أعلم أن ابنتي هكذا جميلة. وقحة ثائرة. ليست للزمن ذاكرة. لقد نسيت، ليست للزمن ذاكرة ولكنه فنان" (34). وتبدأ ملامح الصراع (أولا) في اختلاف مظهرها أو صورتها عن صورة أو مظهر المرأة الجزائرية - التي تشبه في صورة زوجته (سعدية) - عامة، من حيث التبرج والملابس، وفي طريقة كلامها، وفي ثقافتها، وحتى في جرأتها، وهي تخبره بحملها من غير زواج، وتطلب مساعدته دون خوف أو خجل. ولعل الشاهد من الصفحة (83) يجمع كل

هذه العناصر أو مظاهر الاختلاف، التي ما فتأ الكاتب يعيد تكرارها، مجزأ أو مجتمعة على طول النص.

جاء في الشاهد:" وفي الحق أظن أني ما كنت أبدا في مكاني. لقد ضللت عصري. والمرء يمشي متمايلا إذا أكثر من ركوب الخير. ولقد شاء التاريخ أن أمتطي جوادا على عصرين، على حضارتين. أحمر على الأظافر ولفيفة (غولواز) في فم هذه الجزائرية الصغيرة الجميل. /../. وكلمات فرنسية تتحدث بها عن العالم العربي، وعينان سوداوان فيهما أفق كل آفاق الوطن، ورداء كالذي تلبسه أي طالبة تتناول القهوة مع القشدة في شارع (سوفلو) وقلب صغير ودماغ صغير يعرف مارتان دي غار أفضل مما يعرف محمد ديب،/../ وعقل تدارس بيرغسون أكثر من الشيخ ابن باديس، ومعجونة أسنان بدلا من السواك،/../ [ثم تقاطع الفتاة حبل أفكاره] – أو بتعبير آخر تفضل أن أحتفظ بهذا الطفل؟ هذا الطفل ! وكأنه ليس ابنك. كأنه ليس في أحشائك؟ وأتمت قائلة: بتعبير آخر تفضل أن أحتفظ بهذا الطفل ، وعمر من ناحية وأنا من ناحية أخرى لا وضع لنا ولا بيت ، ولكن أفصح ! "(35).

وتزداد وجوه الاختلاف اختلاف الآخر (الوطني) قوة حين تعرض الرواية مفهوم النضال ومفهوم الخيانة من وجهة نظر هذا الآخر، ولا تجد الذات أو الأنا إلا الاعتراف بأخطائها، يقول قدير:" فاضلة مناضلة. أحييها وأمجدها. انظر إليها من نافذة ضعف. أنا أعلم أن الخيانة هي التخلي عن الجماعة. إنها طلاق. وأنا لم أطلق. أنا لا قدرة لي على الحياة. والحب، بل حتى على الموت./../ إن الفاضلات والعمرين وكثيرين مثلهم، وعلى شاكلتهم هم الأبطال، هم الذين أصبحوا أبطالا، الأبطال الوحيدين" (36)، وفي موضع آخر من النص تجتهد الشخصية البطلة في جلد نفسها وهي: تسأل " – سيعبر عمر الحدود منذ ما يستطيع. يجب أن تساعده، إنك قادر على مساعدته.. كان بودي أن أجيب لو لم أقرر الصمت: - أي فكرة في أن تطلبي من خائن أن يؤوي وطنياً" (37).

من هنا بالذات يتخذ الوالد دور التلميذ، وتتخذ ابنته، وحبيبها، وكل أبناء جيلهما دور المعلم، الذي يلقن تلميذه درسا في الوطنية والنضال بمعناهما الجديد، والذي تشير إليه الرواية بوضوح، وفي كل صفحة من صفحاتها ، فالنضال يعني البقاء في ساحة المعركة، حيث لا خيارات سوى الموت (الشهادة) أو الحياة (الحرية).

ولعل هذه الأبعاد الجديدة التي اتخذتها لفظة "النضال" في هذه المرحلة التاريخية لدى الكاتب، بل لدى أفراد المجتمع بصفة عامة، بل كل المجتمعات التي تعاني ويلات الاستعمار جعلت هذا الأدب " ذا طابع إنساني عظيم عندما بدأ يعطي الأولية والصدارة للمسألة الوطنية "(38) من جهة، ودفعت مالك حداد من جهة ثانية للتوقف عن الكتابة باللغة الفرنسية بعد الاستقلال، لأنه رأى أن ضرورات استخدامها قد انعدمت بعد أن عانى ردحا من الدهر من قيودها، فهو الذي صرح في محاضرة ألقاها في دمشق:" نحن الكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية يجب أن ننتهي عندما تتحرر الجزائر، لأن مهمتنا تنتهي آنئذ "(39)، دون أن يفيد هذا عدم الاعتراف بهذا الأدب، فمالك حداد وإن كان صريحا في المطالبة بضرورة التوقف، فإنه " لا يلغي الأصالة الجزائرية

عن هذا الأدب، بحكم جزائرية مبدعيه من جهة، وكذا الروح التي كتب بها، والتي عكست القيم الروحية والأخلاقية للمجتمع الجزائري "(40).

- خاتمة:

وما نخلص إلية كنتيجة أن رواية " ابن الفقير" لمولود معمري استطاعت أن تنقل لنا مرحلة من مراحل الصراع التي عاشها كتاب الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، حتى من أولئك الداعمين إلى فكرة الاندماج والتعايش، صراع حاد بين موقفين، ثقافتين، صورتين تحاول كل واحدة منهما الضغط من أجل تحقيق وجودها الذاتي المستقل.

ووجدنا من خلال هذا الصراع أن هناك وعيا محددا بصورة الأنا، على الرغم من كون بعض الذكريات والحوادث والصفات التي يوكلها ال "أنا" لذاته، توحي بالاستهجان والرفض، فإن ذلك نابع من أقصى درجات التعلق بها، والتفاعل معها. توجه ظهر بشكل علني ومفضوح في جل الروايات التي ظهرت في فترة الخمسينيات ومنها روايات مالك حداد "التلميذ والدرس"، و"سأهبك غزالة"، و "رصيف الأزهار لا يجيب"، و"الشقاء في خطر"، التي عبرت هي الأخرى عن بدايات التحول باتجاه الثورة.

- قائمة المصاردر والمراجع:

(1)- ينظر أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي (نشأته وتطوره وقضاياه)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط)، 2007، ص ص88/89.

(2)- أمين الزاوي: "مقاربات تاريخية للرواية الجزائرية"، مجلة المسار، تونس، ع20/21، يوليو 1994، ص72.

(3)- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، منشورات دار الآداب، لبنان، (ط1)، 1966، ص95.

(4)- المرجع نفسه، ص104.

(5)- بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، تقديم محمود طرشونة، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، (ط1)، 1999، ص115.

(6)- عبد الله الركيبي: "تطور القصة الجزائرية القصيرة"، مجلة الفكر، تونس، ع3، 1 ديسمبر 1977، ص288.

(7)- عبد العزيز بوباكير: الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصبة للنشر، الجزائر، (دط)، 2002، ص16.

(8)- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص96.

(9)- جينز بروكمبير ودونال كربو: السرد والهوية (دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة)، تر عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، مصر، (ط1)، 2015، ص141.

(10)- المرجع نفسه، ص138.

(11)- يمنى العيد: في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، دار الآداب، لبنان، (ط4)، 1999، ص264.

(12)- مولود فرعون: ابن الفقير (رواية)، ترجمة وتقديم نسرين شكرى، سلسلة الإبداع القصصي (2097)، المركز القومي للترجمة، مصر، (ط1)، 2014، ص12.

(13)- خليل نوري مسيهر العاني: الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة (58)، ديوان الوقف السني، العراق، (ط1)، 2009، ص44.

(14)- المرجع نفسه، ص43.

(15)- بن علي لونيس وآخرون: المحكي الروائي العربي (أسئلة الذات والمجتمع)، تقديم سعيد بوطاجين، دار الألمعية، الجزائر، (ط1)، 2014، ص154.

(16)- الرواية، ص98.

(17)- اليكس ميكشيللي: الهوية، علي وطفة، دار الوسيم، سوريا، (ط1)، 1993، ص30.

(18)- الرواية، ص158.

(19)- أمين الزاوي: ""مقاربات تاريخية للرواية الجزائرية"، ص72.

(20)- هويدا صالح: صورة المثقف في الرواية الجديدة (الطرائق السردية)، سلسلة النقد العربي (2)، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، (ط1)، 2013، ص55.

(21)- عبد الحميد الحسامي: التحول الاجتماعي من خلال الفن القصصي (اليمن أنموذجا – دراسة بنيوية تكوينية)، دار التنوير، الجزائر، (ط1)، 2012، ص ص 151/150.

(22)- مولود فرعون: ابن الفقير ، ص ص162/163.

(23)- المصدر نفسه، ص70.

(24)- عبد العزيز بوباكير: الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، ص24.

(25)- المرجع نفسه، ص ن.

(26)- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط)، 1986، ص ص76/77.

(27)- مونيس بخضرة وآخرون: مقاربات فلسفية للنصوص الروائية الجزائرية، النشر الجديد الجامعي، الجزائر، (دط)، 2016، ص52.

(28)- مالك حداد: التلميذ والدرس (رواية)، ترجمة وتقديم سامي الجندي، منشورات وزارة الثقافة، الأردن، (دط)، (دت)، ص91.

(29)- المصدر نفسه، ص63.

(30)- المصدر نفسه، ص54.

(31)- المصدر نفسه، ص ص 32/33.

(32)- المصدر نفسه، ص99.

(33)- المصدر نفسه، ص ن.

(34)- المصدر نفسه، ص19.

(35)- المصدر نفسه، ص83.

(36)- المصدر نفسه، ص ص122/123.

(37)- المصدر نفسه، ص129.

(38)-واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، ص69.

(39)- مالك حداد: التلميذ والدرس، تقدمة المؤلف ص10.

(40)- بلخامسة كريمة: إستراتيجية التلقي في أعمال كاتب ياسين، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، دار الأمان، المغرب، (ط1)، 2016، ص271.